ثقة الأنبياء عليهم السلام بالله والالتجاء إليه وقت البلاء

كتبه: د. محمَّد بن فُؤَاد الكوَّارِيّ

-غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَالمُسْلِمِينَ-

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

مَن تأمَّلَ في استغاثة النبيِّين بالله، خاضعين له ﷻ، حين انسداد كلِّ الأبواب إلا بابَه، أدرك أنّ توحيد الله والثِّقة به: مفتاح الفَرَج.

(٢)

فحينما اشتدَّ الكربُ بعدما أذنبَ الأبوان، وأزلَّهما الشيطان، وأخرجهما من بحبوحة الجِنان، فَزِعَا إلىٰ الرَّحيم الرَّحمن: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فجاءت البشرىٰ **لآدم**: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

(٣)

وحين أطبقَ الأرضَ الطوفان، واشتدَّت الأحوال، حتىٰ بلغَ الماءُ السيَّال رؤوسَ الجبال! استغاثَ **نوح** عليه السلام بالكبير المُتعال، خاضعًا في غاية الإجلال: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾.

(٤)

وكذلك **هود**، لمَّا ابتُلي بالصُّدُود، من أولىٰ البأس المعهود، الجبابرةِ قوم عاد، ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾، نادىٰ واثقًا بالإله الحقِّ المعبود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾، فهل خيَّبه الله؟ كلّا والله، ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

(٥)

وصالح، لمَّا اشتدَّ بلاؤه الواضح، وأصمَّت ثمودُ آذانَها عن نصح الناصح، ودبَّروا لقتلِه بمكرٍ فاضح، ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، لجأ إلىٰ ربِّه واثقًا به: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فهل خيَّبه الله؟ كلَّا والله، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

(٦)

وكذلك الخليل إبراهيم، لما اشتدَّ بلاؤه العظيم، وأُلقِيَ مُكتَّفًا في نار الجحيم، استغاث بالحيِّ القيُّوم، السَّميع العليم، مُكتفِيًا به، قائلاً: "حسبي الله ونعم الوكيل"، فماذا كانت العاقبة؟ ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾.

(٧)

وإسماعيل، لمّا ابتُلِيَ البلاءَ الجليل، بالأمر بذبحه! ماذا أنجاه؟ إلا خضوعه لربِّه في غاية التبجيل، متحليًا بالصبر الجميل، حيث قال لأبيه الخليل: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فجاءَ -في أحرجِ اللحظات- فَرَجُ أرحم الرَّاحمين: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾.

(٨)

ولوط، لم يتسلّل إلىٰ قلبِه القُنُوط، في شدة بلائه وأحلك ظروفِه، أراد الخبثاء الاعتداء عليه وعلىٰ ضيوفِه، هُرِعُوا إليه هَرَعا، وضاق بهم ذرعا، فاستغاث متضرِّعا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي﴾، فجاءَ الفرج سريعا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾، ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾.

(٩)

ويعقوب، لما ادلهمَّت عليه الخُطوب، ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾، نادىٰ بالتضرّع العظيم: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقال لأولاده: صَبْرا ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾، فجاءته البُشرىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

(١٠)

ويوسف، يُبَاع رقيقًا بثمنٍ بَخْس، ويُخيَّر بين الزِّنىٰ أو الحَبْس، فيستغيث بربِّه عالمًا أنه لا أُنْس إلا بالتعلق بربِّ الجنِّ والإِنْس، ولو تألَّمَت قليلًا النَّفْس: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، فهل خيَّبه الله؟

كـــلّا والله، ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، ثم العاقبة؟ صـار مَلِكًا مُمَجّدا ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾.

(١١)

وشُعَيب، اشتدَّ بلاؤه دون رَيْب، عاش عفيفا شريفا، لكن قومه طفَّفوا تطفيفا، وقالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾، فوثِقَ بالقويِّ العزيز، فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾، فكيف كان الـمَآل؟ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

(١٢)

وموسى، لـمَّا تجرّع من البلاء كـؤوسا، وأُحيـطَ به من كل جـانبٍ يُـرىٰ محسوسا، حتىٰ كأنَّ الفرج صار ميئوسا !

و﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، ماذا كان جوابه؟ ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، فجاء الفَرَجُ سريعًا، ولم يلقَ بُوسا، ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾.

(١٣)

وداود، حين دَهِمه البلاءُ المشهود، خضعَ لمن ابتَلاه -وهو الرَّحيم الودود-، بالركوع والسجود، ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾، فجاءته البشرىٰ من ربِّه والجواب: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

(١٤)

وسليمان، حين ابتُلِيَ بسلب المُلك منه والسلطان، لجأ إلىٰ الملك الديّان، في غاية الخُضْعَان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، فأتاه الجواب، بما لم يخطُر بالألباب: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾، وكذلك الجانّ، وأُوتِيَ من كلِّ شيءٍ كان، ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(١٥)

وأيوب، لمّا طالَ به المرضُ العَصِيب، حتىٰ تَساقط عنه لحمُ جسدِه، وابتُلِيَ بفقد ماله وأهله وولدِه، لجأ متضرّعًا إلىٰ كاشف الكُروب، مناديًا: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فماذا تظنُّ أنه سيُجيب؟ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

(١٦)

ويونس ذو النُّون، لمَّا وقعَ في أحلك الوَرَطات، وهو في بطن الحوت مسجون، مبتلًى محزون، فزع إلىٰ مفرّج الكربات، تائبًا من الخطيئات، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فما تظنُّ أنه سيكون؟ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

(١٧)

وزكريا، لمّا طالت عليه البلايا، وبلغ من الكِبَر عتيًا، نادىٰ نداءً خفيًا، معترفًا لصاحب العطايا جل وعلا أنَّه لا يخيّب دعاءَ البرايا، فقال: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، ثم دعا مُسترحِمًا مُستجدِيا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، فجاء الفَرَجُ سريعًا ليس متوانيا: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾.

(١٨)

وعيسى، لمَّا اشتدّ عليه أذاه، وأحسَّ منهم إرادة قتله حسيسا، لجأ إلىٰ ربّه ومولاه، واتخذه أنيسا، فأمَّنه ونجَّاه، ولطَفَ به وأعلاه، قال الله جلَّ في عُلاه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

(١٩)

ومُحمَّد ﷺ سيد الأبرار، لمَّا طارده الكفار، يريدون به القتل والإضرار، حتىٰ وقفوا علىٰ باب الغار، وقال صديقة البارّ: "لو أبصر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا"، قال واثقًا بربِّه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فهل خيّبه الله؟ كلّا والله، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

(٢٠)

وكذلك يوم بَدْر، لمَّا أقبلَ أهل الكُفْر، بالخيلاء والفَخْر، أعدادهم أضعاف الأضعاف، استغاث ﷺ ربَّه في غاية الإلحاف، متضرّعًا رافعًا يدَيْه، حتىٰ سقط رداؤه عن منكبَيْه، وأشفقَ عليه الصدّيقُ وخاف، فأتته البُشرىٰ بالنَّصْر، بعد الدعاء والصَّبْر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

(٢١)

فثِقْ بالله -يا عبد الله-، فالله قويٌّ وغيره عَاجِز، والله غنيٌّ وغيره مُعْوِز، عطاؤه ﷻ يتدَفَّق، وبابُه لا يُغلَق، فالجأ بالإخبات إليه - وحده-، مقتديًا بالنبيِّين، الذين قال عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

{والحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمين}.